# أفق

الكِتاب السنوي 2019

# نحو إنسانٍ عربيٍّ جديد

مؤسّسة الفكر العربي
ARAB THOUGHT FOUNDATION

ثمّة مَنهجان مُختلفان لبِناء ظاهرته

# الإنسان العربيّ الجديد بين الأحاديّة والتعدديّة

د. وحيد عبد المجيد*

**يُثير موضوع الإنسان العربي الجديد، الذي تحتاجه بلادنا في العصر الرّاهن، قضيّة بناء الإنسان. وتدخل هذه القضيّة، منهجيّاً، في إطار مفهوم التنشئة الاجتماعيّة المعروف في عِلم الاجتماع، منذ أواخر القرن التاسع عشر. فقد وضعَ عالِم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم الأساس الأوّل لهذا المفهوم في كِتاباته، وخصوصاً كِتابه عن التعليم وعِلم الاجتماع، الذي حدَّد فيه مهمّة النّظام التربوي في دمْج الأفراد في المجتمع، لكي يتشرّبوا القيَم الاجتماعيّة التي تَغرس في نفوسهم الانتماء الوطني، وتضيف أبعاداً اجتماعيّة وثقافيّة إلى الجانب البيولوجي في الإنسان.**

**وظلّ هذا المعنى الشمولي الغالب في تأصيل دوركهايم لمفهوم التنشئة الاجتماعيّة مُسيطِراً في كثير من الأدبيّات، وخصوصاً في العالَم العربي بحكم البيئة المُحافِظة السائدة في مجتمعاته، والاتّجاه التقليدي الأكثر حضوراً في أوساط الباحثين في عِلم الاجتماع.**

ولذلك، بقي المَنهَج المتضمّن في هذا المعنى، والذي يُمكن أن نسمّيه المَنهَج الأحادي أو القسري في بناء الإنسان، أكثر شيوعاً من المَنهَج التعدّدي الذي ينطلق من أنّ التنشئة الاجتماعيّة تهدف إلى مساعدة الإنسان كي يختار طريقه عبر استخدام عقله، والتعوّد على التفكير المُستقلّ، وليس عن طريق دفعه في طريقٍ بعَينها، أو صبّه في قالب مُستمَدّ من نموذج مسبق.

يُمكن الحديث، إذن، عن منهجَين مُختلفَين تماماً لبناء الإنسان العربي الجديد، تأسيساً على وجود نمطَين للتنشئة الاجتماعيّة تفصلهما مسافة كبيرة. فإذا عرَّفنا هذه التنشئة،

*مُدير مركز الدِراسات السياسيّة والاستراتيجيّة في «**الأهرام**»

بعيداً عن التعريفات الشائعة التي تتّسم بطابعٍ مدرسيّ في الأغلب الأعمّ، بأنّها عمليّة اجتماعيّة تهدف إلى أن يكون الإنسان الفرد جزءاً في المجتمع، ومُرتبطاً بمحيطه الاجتماعي، يُمكننا التمييز بين دمجه في هذا المحيط وفق نموذج معيّن، وتوفير المتطلّبات اللّازمة لاندماجه فيه.

والفرق كبير، هنا، بين الدمْج Merge، والاندماج Fusion، منهجيّاً وليس لغويّاً فقط، بل ربّما تكون المسافة بين المفهومَين في العمليّة الاجتماعيّة أبعد منها بين الكلمتَين في المَعاجِم اللّغويّة.

يعني الدمْج في اللّغة (**معجم المعاني الجامع**) التوحيد. يُقال دَمَجَ شيئَين أو أكثر، أي جَعَلَ منهما شيئاً واحداً، أو وحَّدَهُما بإحكام. أمّا الاندماج، فيعني الاختلاط. وحتّى معاني الاندماج، التي تقترب من الدمج، كونهما جاءا من المَصدر نفسه، يغلب فيها معنى الاختيار وليس القسر. ومنها التقاء، وتفاعل، وكذلك اتّحاد، لأنّ المعنى فيه يختلف عن التوحيد.

هكذا، ثمّة مَنهجان مُختلفان لبناء إنسانٍ عربي جديد. أحدهما ينطوي على أحاديّة تتّسم بالقسريّة في بعض نماذجها، والثاني يقوم على تعدديّة تقوم على إعمال العقل، والقدرة على الاختيار.

ونعرض، في هذا المبحث، المَلامح الأساسيّة لكلٍّ من المَنهجين، انطلاقاً من افتراض أنّ ثانيهما (التعدّدي) هو الذي يُفيد في السعي إلى بناء إنسان عربي جديد يستطيع تحقيق النهضة التي تأخّرت كثيراً.

## أوّلاً: المَنهَج الأحاديّ في بناء الإنسان

يقوم هذا المَنهَج على أنّ هناك سلطة عليا تستطيع بناء الإنسان بطريقة معيّنة، وفْق نموذج محدَّد، وتشكيل شخصيّته، من أجل المُحافَظة على تماسُك المجتمع، أو تحقيق وحدته، أو مُواجَهة أخطارٍ تهدِّده، أو إنجاز أهداف سامية، عبر اصطفاف أفراده وقد صاروا كتلة واحدة يُنظر إلى مَن يختلف عنها بوصفه خارِجاً أو مارِقاً أو متمرِّداً، وفْق تصميم أو نموذج يضعه أو يتبنّاه.

وفي ظلّ هذا المَنهَج، يُفترض أن يؤدّي البناء إلى أن يكون الناس مُتشابهين، يفكّرون بالطريقة نفسها، ويُردِّدون الشعارات ذاتها، ويتصرّفون وفْق أنماطٍ معيّنة. ومن شأن هذا المَنهَج أن يُلغي، أو على الأقلّ يُضعف، أهمّ ما يُميّز الإنسان عن غيره من الكائنات، وهو العقل.

ولهـذا المَنهَـج نمـاذج عدّة هـي الأكثر شـيوعاً نختار منهـا نموذجَين،هُما بناء الإنسـان الاشتراكي، وبناء الإنسان المُسلم (الإسلامي).

## 1- بناء الإنسان الاشتراكي

ارتبطَ هذا المَنهَج بالفلسـفة الماركسـيّة، أو بتفسيرات وشـروحات معيّنة لها، إذا أردنا الدقّة. وعلى الرّغم من أنّ الشرح الذي قدَّمه تشي غيفارا لمَنهج بناء الإنسان الاشتراكي قد يبدو مُغالياً، فهو يُعدّ في الواقع أكثرها تعبيراً عن هذا المَنهَج، وما يُمكن أن يؤدّي إليه.

ونعتمد في عرض المَلامح الأساسيّة لشرح غيفارا لمنهج بناء الإنسان الاشتراكي على ما ورد في مَواضِع متفرّقة من الكِتاب الأكثر أهميّة عنه، والذي كَتبه أرماندو هارت، أحد أبرز مُنظّري الثورة الكوبيّة، وتَرجَمه د. مسعد عربيد تحت عنوان «**ماذا تبقّى من غيفارا؟**»[1].

فقد طرحَ غيفارا مفهوم الإنسان الجديد، أو إنسان المُستقبل، اعتماداً على مُشاهداته وخبراته في الحرب الثوريّة الكوبيّة (1956-1959)، واستناداً إلى الماركسيّة التي آمن بها علـى طريقتـه، وذهـب إلى أهميّة خلْق نمطٍ جديد للإنسـان يقوم بـدَورٍ فاعل في عمليّة البناء الاشتراكي.

بناء الإنسان، في هذا السياق إذن، يرتبط ببناء الاشتراكيّة، وهذا الإنسان الجديد لا يعمل مـن أجل مُراكَمة السـلع والنقود بشـكلٍ فـردي وأناني، بل يَعلـم أنّ مهمّته الأخلاقيّة تفـرض عليـه أن يتفانى فـي العمل من أجل المجتمع، وأنّ هـذا المجتمع في المقابل يعتني به، وبأسرته.

ووفقـاً لغيفـارا، لا يُمكن تحقيق الاشـتراكيّة، والوصول إلى الشـيوعيّة كما عرّفها كارل ماركس، إذا لم يكُن الإنسـان واعياً، وإذا لم يتحوّل المجتمع إلى مدرسـة كبيرة لإعادة بناء الإنسان عن طريق التثقيف الجماعي المنظَّم.

وطرحَ ركائز عدّة يقوم عليها التحوّل نحو إنسان جديد اشتراكي، من أهمّها:

أ- الوعـي: إذ يتطلَّـب بناء الوعي الاشـتراكي مُحارَبة الأنانيّة والطَّمَـع والتّناحُر بين أفراد المجتمع، وتدعيم التعاون والتكافُل بينهم.

ب- تجديد دَور الثقافة، حيث أعاد تأكيد فكرة كارل ماركس بشـأن وظيفة الثقافة، وهي

(1) أرماندو هارت، **ماذا تبقّى من غيفارا**، ترجمة مسعد عربيد، القاهرة، وكالة الصحافة العربيّة (ناشرون)، 2017.

تغيير العالَم، وليس الاكتفاء بتفسيره، عبر تأسيس قيَمٍ جديدة، وإحداث تغيير فعليّ ملموس في سلوك الفرد.

ج- إقامة علاقات إنسانيّة جديدة متحرِّرة من السعي إلى الرفاه، ومُتَّجهة إلى العمل الجادّ على أساس التوزيع المُتساوي للثروة العامّة مهما كانت قليلة، بحيث توضَع في خدمة المجتمع بأسره ضمن إطار الإنتاج الاجتماعي، وبعيداً عن العلاقات الاجتماعيّة الرأسماليّة.

ولذلك، رأى أنّ الإنسان الجديد يجب أن يكون متحرِّراً من ثقافة السوق وعلاقاتها، وأن يتحوَّل من مُستهلِك إلى مُنتِج، وأن تكون وسائل الإنتاج، هي المحدِّدة للاستهلاك وليس العكس، من أجل إنهاء «تسليع» العمل، أي عدم التعاطي معه بوصفه سلعة، وتوفير منظومة توفِّر للإنسان القدرة على أن يؤدّي عمله وفاءً لواجبه الاجتماعي، سعياً إلى تحقيق فكرة ماركس القائلة إنّ الإنسان يبلغ الحالة الأكثر إنسانيّة عندما يؤدّي عمله ويُسهِم في الإنتاج، من دون أن يكون مُكرَهاً على أن يبيع نفسه كسلعة من أجل الحصول على حاجاته.

د- أولويّة الحوافز المعنويّة والأخلاقيّة على نظيرتها الماديّة. فالحوافز المعنويّة والأخلاقيّة تأتي في المَوقع الأوّل في بناء الإنسان الجديد، لأنّها حجر الأساس في المشروع الاشتراكي. أمّا الحوافز الماديّة، فهي تأتي في مرتبة تالية، سواء زيادة الأجور أم المكافآت والعلاوات أم غيرها.

كما أنّ الحوافز المعنويّة والأخلاقيّة هي التي تربط بين مصلحتَي الفرد والمجتمع، وتُحرِّر الإنسان من الاستغراق في الفردانيّة والاغتراب، فضلاً عن أنّها تُعزِّز علاقات التضامُن بين الناس. فعندما يشعر الإنسان بأنّه جزء لا يتجزّأ من الكلّ الجماعي، يصبح لعمله وجهده معنى عميق، وينتفي التناقض بين حاجاته ومَصالِح المجتمع، وتتوطَّد ثقته في العمل من أجل المصلحة الجماعيّة المُشترَكة، ويُصبح راغِباً في مزيدٍ من العطاء والتضحية.

ولا يخفى إغفال هذا المَنهَج دَور العقل الإنساني الفرد في التفكير والابتكار والإبداع، لأنّه يقوم على وجود «عقل» أعلى يُغني عن جميع العقول في المجتمع.

ولم يَعرف العالَم العربي هذه الصيغة المتشدِّدة من المَنهَج الأحادي لبناء الإنسان، لكنّ الكثير من بلدانه عَرف صيَغاً مخفَّفة، في ظلّ حُكم التنظيم أو الحزب الواحد، أو هَيمَنة حاكِم فرد. ومن بينها، على سبيل المثال، مصر التي عَرفت المَنهَج الأحادي في بناء الإنسان، بدءاً من منتصف خمسينيّات القرن الماضي، وخصوصاً في مرحلة

التنظيم السياسي الواحد الذي حمل اسم «الاتّحاد الاشتراكي العربي». فقد سعَت الأمانة العامّة لهذا التنظيم إلى تصميم مَنهَجٍ أحادي في بناء الإنسان، عن طريق أمانة الدعوة والفكر التابِعة لها.

وتحفل نشرة «**الاشتراكي**»، التي أصدرتها بين 1964 و1971، بما يدلّ على سعيٍ إلى بناء إنسانٍ اشتراكي، سواء في تغطيتها المفصَّلة للقاعاتٍ عقدتها الأمانة في مُدنٍ وبلدانٍ كثيرة، بهدف تثقيف الحاضرين ونشْر الوعي الاشتراكي لديهم، أم في كِتابات نَشرتها لهذا الغرض.

## 2- بناء الإنسان «المُسلِم»

لا يقتصر استغلالُ منظّماتٍ شتّى الإسلام لتحقيق أهدافٍ سياسيّة على ادّعاء امتلاكها حلولاً نابعة منه لمُختلف المشكلات، بل يشمل مُمارسات كثيرة أخرى، من بينها استخدامه في تجنيد أعضاء وضمّهم إليها وضمان ولائهم. ويصل هذا النَّوع من الاستخدام إلى ذروته في المنظّمات والجماعات التي تسعى إلى إعادة تنشئة الأعضاء الجُدد من الشباب والشابّات اعتماداً على فهْمٍ أحادي، ووفْق أُطرٍ صارِمة، على نحوٍ يؤدّي إلى فصلهم عن بيئتهم الاجتماعيّة الطبيعيّة، والسيطرة الكاملة على عقولهم.

وتُعدّ جماعة «الإخوان» المثال الأكثر دلالة على استخدام الإسلام في إعادة صوْغ شخصيّة العضو الجديد وغسْل عقله، تحت شعار بناء إنسان «مُسلِم»، في إطار السعي إلى جعْل كلمتَي «إخواني»، ومسلِم، مترادفتَين.

وتحدث هذه العمليّة بطريقة منظَّمة، ومُمنهَجة، منذ العام 1943 عندما حدثَ تغييرٌ في الهَيكل التنظيمي للجماعة، وأصبحت «الأسرة» هي الوحدة القاعديّة الأولى التي يُلحق بها العضو الجديد، بدل الشُعبة التي صارت هي الوحدة التالية لها، من حيث التراتبيّة في داخل هذه الجماعة. ولا تخفى دلالة اختيار كلمة «أسرة»، التي تضمّ عدداً محدوداً من الأعضاء لا يزيد على عشرة في الأغلب الأعمّ، لما تحمله من معاني الانتماء القوي، والعلاقة الوطيدة، بين هؤلاء الأعضاء.

وأصدرَ المُرشِد العامّ الأوّل للجماعة حسن البنّا في العام 1943 «**رسالة الأُسر**»[2]، التي دعا فيها إلى تكوين أسر قال عنها إنّها «ترفع أُخُوّتَكم من مستوى الكلام والنظريّات إلى مستوى الأفعال والعمليّات، فاحرص يا أخي أن تكون لبنة صالِحة في هذا البناء

(2) **مجموعة رسائل الإمام البنّا**، ط3، القاهرة، مركز البصائر للبحوث والدراسات، 2010، ص ص519-533.

الكريم». وحدَّد ثلاثة أركان لهذا البناء، وهي التعارُف «لاستشعار معنى الأخوّة الصحيحة الكاملة في ما بينكم»، والتفاهُم بأن «يَنصح كلّ منكم أخاه، وليقبل الأخُ نصْح أخيه بسرور وفرَح»، والتكافُل «ليحمل بعضكم عبء بعض، وليتعهَّد بعضكم بعضاً بالسؤال والزيارة والبرّ، وليُبادِر إلى مُساعدته ..».

كما حدَّد واجبات الأسرة، وأهمّها عرْض مُشكلات أعضائها والمُساعَدة في حلّها، ومُذاكرة حول شؤون الإسلام، وتلاوة الرسائل والتوجيهات الواردة من القيادة العامّة للأُسر، ومُدارَسة نافِعة في كِتاب من الكُتب القيّمة، والقيام برحلات مُشتَرَكة، والصيام معاً ليومٍ في الأسبوع، وصلاة الفجر جماعة مرّة كلّ أسبوع، على الأقلّ في المسجد، والحرْص على المَبيت معاً مرّة كلّ أسبوع أو أسبوعَين ... إلخ.

ويفيد تأمُّل هذا النظام الذي تقوم عليه الأُسرة ومُتابَعة ما توافر من معلومات عن دَورها، أنّها أدَّت إلى تحوّل جماعة «الإخوان» إلى مجتمع في داخل المجتمع .. مجتمع شبه مُغلق، ومُنغلق بدرجة كبيرة، الأمر الذي يفسِّر التشابُه الذي يُمكن ملاحظته في النمط العامّ لسلوك أعضاء الجماعة، وفي غير قليل من المفردات التي يستخدمونها.

ويعود ذلك إلى أنّ أعضاء كلّ أسرة يقضون مع بعضهم وقتاً أطول ممّا يقضيه أيٌّ منهم مع أسرته الطبيعيّة التي تغدو، والحال هكذا، في مرتبة تالية للأُسرة التنظيميّة «الإخوانيّة». ويروي أحد قادة الجماعة قصّة تأسيس هذه الأُسر للمرّة الأولى في العام 1943، وكيف توسَّع نِطاقها أوّلاً في أوساط الطلّاب المُنتمين إلى الجماعة: «كنّا في أسرتنا نأخذ أمورنا كلّها مأخذ الجدّ. تعاونّا حتّى كان أحدنا يَعرف كلّ شيء عن أخيه وعن ظروفه في المدرسة وفي البيت وعن حالته الماليّة والاجتماعيّة، وتآخينا حتّى كان حبُّ كلٍّ منّا لأخيه يفوق حبّه لنفسه ...»[3].

وإذا أضفنا إلى ذلك سعي قيادة الجماعة، في الفترة التاليّة لعودتها إلى المجال العام في مصر في سبعينات القرن الماضي، إلى ربط الأعضاء بها عن طريق علاقات العمل والتزاوج والتصاهر، ربما نستنتج أنّها ذهبت إلى أبعد مدى في عمليّة بناء الإنسان، أو إعادة بنائه، وفق نموذج محدَّد؛ فقد أتاح توسُّع النشاط الاقتصادي والتجاري لأصحاب المال في الجماعة فرصة لتشغيل عدد كبير من أعضائها في الشركات والمتاجر والجمعيّات التي كانوا يملكونها، كما حدث توسُّع ملموس في تزويج الشبّان والشابّات، وفي بناء

---

(3) أحمد عادل كمال، **النقط فوق الحروف. الإخوان المسلمون والنّظام الخاصّ**، ط2، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، 1989، ص ص70- 74.

علاقـات مصاهرة، بحيث أصبحت هناك أسـر «إخوانيّة» طبيعيّـة (زوج، وزوجة، وأبناء)، أو خُطط لأن تكون كذلك، إلى جانب الأسر التنظيميّة.

## ثانياً: المَنهَج التعدّدي في بناء الإنسان

يعتمـد هـذا المَنهَج في بناء الإنسـان على تنميـة أهمّ ما يملكه، وهـو العقل. ويقوم على أسـاس أنّ بناء الإنسـان يتطلّب، قبل كلّ شيء، إطلاق قدرته على التفكير والابتكار والإبداع، وبالتالي فتْح الأبواب جميعها أمام القوّة الكامنة في عقله.

وقد ثبتَ أنّ هذا المَنهَج هو الذي يبني إنسـاناً قادراً على صنْع التقدّم والنهضة، كما يتّضح في مختلف التجارب خلال نصف القرن الأخير. وممّا ينطوي على دلالة مهمّة في هذا السياق، إدراك القيادة الصينيّة، منذ آخر سبعينيّات القرن الماضي، فشل المَنهَج الأحـادي الـذي اتُّبع في عهد ماوتسـي تونغ، فأحدثـت تغييراً تدريجيّـاً فيه لم يكتمل بعـد. لكـنْ، على الرّغم من عدم اكتمـال هذا التغيير، يُمكن أن نسـتنتج الكثير عندما نُقـارِن بيـن حال الإنسـان فيها عندما بُنـي وفق المَنهَج الأحـادي (1949-1977)، وحين أُعيد بناؤه على أسـاس مَنهج يسـمح باسـتخدام العقل، على الرّغم من القيود التي ظلَّت مفروضة عليه.

فقد أدركَ الصينيّون، منذ نهاية سبعينيّات القرن الماضي، أهميّة تحرير العقل في حدود معيّنـة، على النحو الذي سـجَّله الدسـتور المُعدَّل المُعتمَد في المؤتمر العامّ التاسـع عشـر للحـزب الشـيوعي في 24 تشـرين الأوّل (أكتوبر) العـام 2017 (4). فقد تضمَّن هذا الدسـتور أنّـه «منذ انعقاد الـدورة الكاملة الثالثة للّجنة المركزيّة الحادية عشـرة للحزب، راجعَ الشيوعيّون الصينيّون بزعامة دنغ شياو بينغ التجارب الإيجابيّة والسلبيّة بعد قيام الصيـن الجديـدة، وعلى هذا الأسـاس دعوا إلى تحرير العقول والبحـث عن الحقيقة في الواقع، وتحويل مركز ثقل أعمال الحزب صوب البناء الاقتصادي وتنفيذ سياسة الإصلاح والانفتـاح علـى العالَم الخارجي». وتكرَّرت الإشـارة إلى تحرير العقول في هذا الدسـتور الذي نصَّ أيضاً على «احترام العمل والكفاءة والابتكار».

وقد قَطعت الصين خطوة مهمّة على هذه الطريق، التي لا يزال عليها أن تمضي خطوات أخرى فيها لتصل إلى ما تضمَّنه الدسـتور المُعدَّل لحزبها الشـيوعي الحاكِم بشـأن تحرير

---

(4) نصّ الدستور المعدَّل للحزب الشيوعي الصيني في:
Xinhua-arabic.news.com, 3-11-2007

العقـول. وهـذه هـي الطريق نفسـها التي يتعيَّـن أن تسـلكها دولنا لبناء إنسـانٍ عربي يسـتطيع الإسـهام حقّاً، وليس قَولاً، في تحقيق نهضة أخفقنا في إنجازها منذ أن صارت هدفاً سعت إليه أجيال متوالية على مدى ما يقرب من قرنٍ ونصف القرن، واللّحاق بقطار التقدُّم في عالَمنا.

ولـم يسـبقنا غيرنا في العالَم، وهُم كُثر، في إنمائـه، ليس في أوروبا وأميركا فقط، إلّا لأنّهـم أدركـوا أنّ طريـق التقدّم والنهضة يبـدأ بتحرير العقل. فلم يكُـن مُمكناً أن يبدأ العالَـم فـي الخروج من جمود العصور الوسـطى وتخلّفها مـن دون تحرير العقل، الذي بدأ يتفتَّح، ويُنتِج عِلماً يسبر أغوار الكَون والطبيعة، ويتفاعل مع الفلسفة لفهْم أعماق الإنسان والمجتمع، بالتّزامُن مع نقْلةٍ كيفيّة في الفنون كانت إيذاناً بمَولد إنسانٍ جديد فـي أوروبا بدءاً من القرن الخامس عشـر .. إنسـان جديد يعـرف قيمة عقله، ويفكِّر في كلّ ما يحيطه، ويَخرج من أَسر المُسلّمات التي فُرضت عليه، والتابوهات التي عطَّلت هذا العقل طويلاً.

فـي مَطلـع النهضـة، وفي عصرهـا الأوّل، الـذي بدأ أوروبيّـاً، كان العقل. وفي مُسـتهلّ الانتقـال إلـى التقـدُّم، كان التفكير. صَنَعَ العقلُ القادر على التفكير إنسـاناً جديداً خاضَ مَعركة الصراع مع القديم الذي كان مُتشبّثاً بالبقاء والاستمرار.

ولا تخفـى الصلـة الوثيقـة بين تحرُّر العقل مـن أغلال التخلُّف، والعِلم الذي سـعى إلى اقتـلاع حصـون هذا التخلُّـف؛ فلم يكُن متصـوّراً تحرير العقل مـن دون المَنهَج العِلمي الـذي يفتح الآفاق واسـعةً أمـام التفكير والتأمُّل والإبداع والابتـكار في كلّ مجال من مجالات الحياة. وكانت هذه هي نقطة التحوّل الكبرى في تاريخ الإنسان، أو قلْ في تاريخ الكائـن البشـري الذي تحوَّل إنسـاناً جديـداً عندما تحرَّر عقلـه، وأدركَ قيمة هذا العقل، وازدادت ثقته في قدرته على أن يكون سـيّد نفسـه، بوصفه كائناً عاقلاً يسـتطيع تغيير وجـه الحيـاة على الأرض، اعتماداً على قوّة العِلم والفكر والمَعرفة، وعبر مُحارَبة الجهل والتعصُّب والخرافة.

ولـم تكُـن مُصادَفة أن يَحـدث التحوّل نحو النهضة فـي أجواءٍ أُتيحت فيهـا فُرَصٌ لتوفير متطلّبـات البناء الذّاتي للإنسـان الجديـد، وليس في تلك التي فُرضـت فيها قَوالب لهذا الإنسان على النحو الذي سبق توضيحه في شرْح أبعاد المَنهَج الأحادي.

هـذا هـو أهمّ مـا يتعيَّن أن يكـون مفهوماً في السـعي إلى بناء إنسـان عربي جديد قـادر علـى تحقيق النهضـة اعتماداً على عقلـه، وبالطريقة التي يراهـا كلّ فرد، وليس

استناداً إلى «عقل» أحاديّ ذي طابعٍ كلّي يفرض نموذجاً مُعيّناً أو يَضع قالِباً مُحدَّداً؛ فالإنسان العربي الجديد، الذي يُمكن أن يُسهم في تحقيق النهضة، هو الذي يقدِّم إسهاماً جديداً في مجال تخصّصه أو عمله أو دراسته. وكلّما تعدَّدت هذه الإسهامات، وتنوَّعت، وكَثُرت، وتراكَمت، صارَت الطريق إلى النهضة مفتوحة للمرّة الأولى في تاريخ العرب الحديث.

وكلّ ما يتطلّبه فتْح هذه الطريق هو توفير المتطلّبات الموضوعيّة الأساسيّة اللّازمة لإطلاق العقل العربي المُكبّل، وفي مقدّمها نِظام تعليميّ حديث يُساعِد في تنمية هذا العقل وتفتّحه، ومجال عامّ مفتوح لتفاعُلاتٍ تُساعِد في تعميم الفوائد المُترتّبة على هذا النّظام، ورفع مستوى الأحوال في المجتمع.

## 1- نظام تعليم حديث

يلعب نظام التعليم دَوراً محوريّاً في تحديد حال العقل في أيّ مجتمع. وكلّما أُقيم هذا النِّظام على تعظيم قيمة العقل، ازدادت إمكانات إسهامه في بناء إنسان عربي جديد، والعكس. ويُعَدّ التعليم الأساسي هو المحدِّد الرئيس في هذا السياق. فإمّا أن يتعلّم التلميذ منذ البداية كيف يَستخدم عقله، ويسأل من دون قلق أو خوف حتّى إذا أخطأ، وأيّاً كان الخطأ الذي يقع فيه، ومن ثمّ ينشأ وقد تعوَّد على أن يفكّر، ويتأمّل، ويَزن الأمور، ويَنقد، ويُقيّم، وإمّا أن ينشأ وقد تعوَّد على أنّ هناك مَن يفكِّر نيابةً عنه، ويُلقِّنه، ويُحدِّد له الاتّجاه الذي يمضي فيه، فيبقى عقله مُقيَّداً أو محبوساً، وعاجزاً عن التفكير بطريقة خلّاقة أو مُعدَمة، ويُصبح هدفاً لمَن يريد حشو هذا العقل بالتعصُّب والتطرُّف والنزوع إلى العنف.

مُراجَعة نُظم التعليم في بلداننا العربيّة، إذن، هي الخطوة الأولى في اتّجاه بناء إنسانٍ جديد. يحتاج هذا البناء نِظاماً تعليميّاً قائماً على تنمية العقل ليكون قادراً على أداء وظيفته المُحتجَزة في التفكير الذي يأتي بقيمة مُضافَة، وليس نِظاماً يقوم على تنمية الذاكرة وحشوها. ويتطلّب هذا التحوُّل تغييراً في أسلوب التعليم، وإعادة تأهيل المُعلّمين وفْق هذا الأسلوب الذي ينمّي العقل لا الذاكرة. وهذا التغيير ضروري في مَنهج التعليم، وليس في المَنهَج الدراسي فقط، عبر بناء علاقة إيجابيّة بين المُعلّم والطالِب، بحيث لا يخشى الثاني أن يسأل أسئلة غير مألوفة، أو أن يُشكّك في ما يَسمعه في الدّرس، ولا يغضب الأوّل حين يتجاوز الثاني في سؤالٍ أو آخر. وكلّما بُني نِظام التعليم على أنّ السؤال أكثر أهميّة من الجواب، وأنّ تعليم التلميذ كيف يفكّر

ويَسأل ويسعى إلى المَعرفة خيرٌ من تلقينه بضع معلومات، نكون قد بدأنا الطريق المؤدّية إلى إنسانٍ عربي جديد.

## 2- مجالٌ عامّ مفتوح

ثمّة اعتقاد شائع في أنّ فتْح المجال العامّ للحوار والنقاش من دون قيود، يَدخل في إطار مبدأ الحريّة. وهذا اعتقاد صحيح في جزء صغير منه، لأنّ أهميّة فتْح المجال العامّ أكبر من توفير الحريّات العامّة بكثير. المجال العامّ، هو ذلك الفضاء الذي يتفاعل فيه الناس في أيّ مجتمع، فيعبّرون عن آرائهم ومَواقفهم، ويُنظّمون أنفسهم في روابط مُختلفة، ويتّفقون ويختلفون. وهُم، في هذا كلّه وفي غيره، يتفاعلون إيجاباً وسلباً، وبالتالي يفكّرون فيصيبون أو يُخطئون، على نحو يوفِّر فُرصاً لمُراجَعة أفكار، أو تطوير مَفاهيم، في اتّجاهاتٍ شتّى سواء إلى الأمام أم إلى الوراء.

فتْح المجال العامّ، إذاً، يوفِّر فُرصاً لتحرير العقل، من دون خشية من أن تستغلّه اتّجاهات تهدف إلى تقييد هذا العقل، وأخْذ المجتمع إلى الوراء، لأنّ تجارب البشر في العالَم منذ القرن الخامس عشر تفيد بأنّ حركة التاريخ تتأرجَح، وتتذبذَب، ولا تسير في خطٍّ واحد، لكنّها تمضي في المحصّلة إلى الأمام.

لذلك يتطلّب السعي إلى بناء إنسان عربي جديد قادر على تحقيق النهضة، فهْمَ مسألةِ فتْح المجال العامّ على هذا النحو، وإدراكَ أنّ إيجابيّات تحريره أكثر من أيّ آثار سلبيّة يُمكن أن تترتّب على ذلك، الأمر الذي يساعد في توافر الإرادة لحلّ المُشكلات التي قد تدفع إلى فرْض قيودٍ من أجل مُواجَهة أخطارٍ تُهدِّد المجتمع، مثل خطر الإرهاب في المرحلة الرّاهنة. وعندئذ، لن يكون صعباً إيجاد مُعادَلة تكفل تحقيق التوازُن بين فتْح المجال العامّ، ومُواجَهة الأخطار التي قد تجد فيه فرصةً لتهديد الأمن والاستقرار، أي التوازُن بين الحريّة والأمن. وبمقدار ما يُعتبر الأمن ضروريّاً لحماية المجتمع من أخطارٍ تُهدِّده، يُعدّ تحرير العقل ضرورة قصوى لنهضة هذا المجتمع وتقدّمه وتفتُّح ورود الإنسان العربي الجديد.

# هذا الكِتاب

لطالما رافق الانتقال من القرون الوسطى إلى الأزمنة الحديثة الكلامُ على إنسانٍ جديد. وليس أدلّ على ذلك من سعي المذاهب الفلسفيّة المختلفة إلى رسم ملامح هذا الإنسان الذي كان عصر الأنوار قد نادى به، ومن تبنّي عددٍ من التيّارات الفكريّة التي سادت في القرن العشرين شعارَ "بناء الإنسان الجديد".

وإذا كان هذا التطلّع إلى التجديد قد شمل عمليّاً، منذ مطالِع القرن الماضي حتّى اليوم، جميع الحقول والقطاعات، فإنّه غالباً ما ينشأ عن اختلالاتٍ عميقة في الحياة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، وعن التحديّات الطارئة التي تواجه الإنسان والمجتمع في مرحلةٍ تاريخيّة معيّنة.

يندرج الكلام على "الإنسان العربيّ الجديد" في هذا الإطار بالذّات. فهو ينطلق من الإقرار بعجزنا عن التغلّب على الأزمات العصيبة التي يشهدها عالَمنا العربيّ حاليّاً في شتّى الميادين وعلى مختلف الأصعدة؛ وهو مبنيٌّ على وعينا خطورة التحديّات التي يواجهها، بسبب أوضاعه الداخليّة ونتيجةً للتحوّلات الجوهريّة والمتسارعة التي يعيشها العالَم بأسره وتنعكس تداعياتها عليه انعكاساً مباشراً وعميقاً؛ ولكنّه نابعٌ أيضاً من رهاننا على أنّه سيكون بمقدور الإنسان العربيّ، وكما أثبت ذلك مراراً في الماضي، أن يحقّق النهضة المرجوّة، شرط أن تتهيّأ له الظروف المساعدة لإنجاز هذه المهمّة التاريخيّة.


**مؤسّسة الفكر العربي**
شارع الجامع العمري، الوسط التجاري، بيروت
ص.ب.: 524-11بيـروت – لبنان
هاتف:00 71 99 1 961+ – فاكس:01 71 99 1 961+
www.arabthought.org – info@arabthought.com